١ - محمود سامي البارودي

ديوان البارودى:

(خاتمة الجزء الرابع)

ولد " محمود سامى البارودى " يوم الأحد ٢٧ من رجب سنة ١٢٥٥ هـ ، الموافق ٦ من أكتوبر سنة ١٨٣٩ م . وتوفى يوم الأثنين ٦ من شوال سنة ١٣٢٢ هـ الموافق ١٢ من ديسمبر سنة ١٩٠٤ م . وأصل ديوانه المخطوط الذى فى أيدينا يملأ ٣١٤ صفحة من الفولسكاب . أتم نقله بقلمه " مصطفى عبد الخالق " يوم ١٠ من سبتمبر سنة ١٩٠٨ . والقوافى التى نظم فيها البارودى شعره هى :

الهمزة ، والألف المقصورة ، والباء ، والتاء ، والثاء ، والجيم ، والحاء ، والدال ، والذال ، والراء ، والزاى ، والسين ، والشين ، والصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء ، والعين ، والفاء ، والقاف ، والكاف ، واللام ، والميم ، والنون ، والهاء ، والواو ، والياء . وترتيبها فى أصل الديوان يطابق ترتيب حروف الهجاء . وقد استغرقت كل الحروف الهجائية ماعدا الخاء ، والغين . أما ترتيب القصائد والمقطوعات فى كل قافية ، فيبدو لنا أنه من إعداد الناظم نفسه ، أو من إعداد غيره تحت إشرافه . ولا نعرف الأساس الذى بنى عليه هذا الترتيب .

ويعيب هذا الأصل كثير من تصحيفات الناسخ ، وتحريفاته . وفيه إلى هذا نقص ، وزيادة ، وتكرار ، وأخطاء إملائية ، ونحوية ، ولغوية . وأبيات مكسورة ، اختلت أوزانها ، وأفسدت معانيها ، وكلمات غامضة ، مستبهمة ، مبتغلقة ، لا تنكشف للقارىء المتمرس إلا بجهد ، ومشقة ، واصطبار ، ومعاناة ... وفيه قصائد ، ومقطوعات ، وأبيات مطموسة ، عدتها خمسة وسبعون بيتاً ، كشفناها كلها ماعدا ستة أبيات فى قافية الباء ، بولغ فى طمسها ، فلم نستطع قراءتها . وبحول الله

تبارك وتعالى وتوفيقه حققنا هذا الأصل ، وصححناه ، وضبطناه ، وشرحناه ، وقربناه إلى الطالب ، ويسرناه كل التيسير . وفى أثناء الشرح نبهنا القارىء على بعض ما صححناه وعالجناه ، من عيوب الأصل المخطوط ومناقصه ، وآفاته . وأغفلنا الإشارة إلى كثير منها .

شرحنا الديوان كله فى أربعة أجزاء : الجزء الأول ١٥٥٢ بيت ، من أول قافية الهمزة إلى نهاية قافية الذال فى ٣٢٧ صفحة . والثانى ١٧٢٣ بيت ، من أول قافية الراء إلى نهاية قافية الكاف فى ٣٨٨ صفحة . وشاركت الأستاذ الجليل " على الجارم " فى تحقيق هذين الجزأين ، وتصحيحهما وضبطهما ، وشرحهما . وطبعتهما مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة : الجزء الأول سنة ١٩٤٠ ثم الجزء الثانى سنة ١٩٤٢ ثم طبعتهما بعدها المطبعة الأميرية بالقاهرة عدة طبعات . ثم طبعتهما دار المعارف بمصر بتحقيقات ، وتكملات ، وزيادات قيمة ، ذات بال : الجزء الأول فى يوليو سنة ١٩٧١ فى ٣١٦ صفحة . ثم الجزء الثانى فى إبريل سنة ١٩٧٢ فى ٤٠٠ صفحة .

ولما انتقل الأستاذ الجليل " على الجارم " إلى رحمة الله فى ١٩٤٩/٢/٨ انفردت بالعمل فى الجزأين الثالث والرابع ، وأخرجتهما دار المعارف : الجزء الثالث من بدء قافية اللام إلى نهاية قافية الميم ١٣٠٧ بيت فى ٦٢٧ صفحة فى أغسطس سنة ١٩٧٤م . ثم الجزء الرابع من بدء قافية النون إلى نهاية قافية الياء ٧٢١ بيت فى ٢٣٦ صفحة فى مايو سنة ١٩٧٥ .

وللبارودى فوق هذا كله قصيدة ميمية مطولة فى ٤٤٧ بيت ، نظمها فى مدح النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وسماها : " كشف الغمة فى مدح سيد الأمة " . وله أبيات أخرى لم تأت فى ديوانه . وفى أول الجزء الثالث شكرنا لكل من أعان على إنجاز هذا الديوان ، وتيسير طبعه ونشره .

والحمد لله كما ينبغى لجلال وجهه ، وعظيم سلطانه .

٨ شارع المختار بالروضة بالقاهرة محمد شفيق معروف

وقال يذكر سفره مع الجند المصرى إلى جزيرة " أقريطش " سنة ثنتين وثمانين ومائتين وألف هجرية (١٢٨٢ هـ - ١٨٦٥ م) حين خرج سكانها عن الطاعة ، ويعرض بأشياء فى نفسه ، ويتشوق إلى مصر :

أخذ الكرى بمعاقد الأجفان ... وهفا السُّرى بأعنّة الفرسان
والليل منشورُ النوائب ضارب ... فوق المتالع والربا بجران
لا تستبين العين فى ظلمائه ... إلا اشتعال أسنة المُرّان
نسرى به مابين لجة فتنة ... تسمو غواربها على الطوفان
فى كل مربأة ، وكل ثنية ... تَهْدَارُ سامرة ، وعزف قيان
تسعون عادية ، ويصهل أجرد ... وتصيح أحراس ، ويهتف عاني
قوم أبى الشيطان إلا نزغَهم ... فتسللوا من طاعة السلطان
ملئوا الفضاء ، فما يبين لناظر ... غير التماع البيض والخُرْصان
فالبدر أكدر ، والسماء مريضة ... والبحر أشكل ، والرماح دواني
والخيل واقفة على أرسانها ... لطراد يوم كريهة ، ورهان

وصفوا السلاح إلى الصباح وأقبلوا ... يتكلمون بألسن النيران
حتى إذا ما الصبح أسفر . وارتمت ... عيناى بين ربا ، وبين محانى
فإذا الجبال أسنة ، وإذا الوها ... دُ أعنة . والماء أحمر قانى
فتوجست فرط الركاب ، ولم تكن ... لتهاب ، فامتنعت على الأرسان
فزعت . فرجّعت الحنين ، وإنما ... تحنانها شجن من الأشجان
ذكرت مواردها بمصر . وأين من ... ماءٍ بمصر منازل الرومان؟
والنفس مولعة - وإن هى صادفت ... خلفاً - بأول صاحب ومكان
فسقى السماك محلةً ومقامةً ... فى مصر كل روية مرنان
حتى تعود الأرض بعد مُحُولها ... شتى النماء ، كثيرة الألوان
بلد خلعت بها عذار شبيبتى ... وطرحت في يمنى الغرام عنانى

فصعيدها أحوى النبات ، وسرحها ... ألمى الظلال ، وزهرها متدانى
فارقتها طلباً لما هو كائن ... والمرء طوع تقلب الأزمان
حمل الزمان علىَّ مالَمْ أجْنِهِ ... إن الأماثل عرضةُ الحدثان
نقموا علىّ - وقد فتكت - شجاعتى ... إن الشجاعة حليةُ الفتيان
فليهنأ الدهرُ الغيور برحلتى ... عن مصر ، ولتهدأ صروف زمانى
فلقد رجعت وسوف أرجع واثقاً ... بالله . أعْلمتُ الزمانَ مكانى
صادقت بعض القوم حتى خاننى ... وحفظت منه مَغيبَهُ فرمانى
زعم النصيحة - بعد أن بلغت به ... غِشّاً - وجازى الحقَّ بالبهتان

فليجر بعدُ كما أراد بنفسه ... إن الشقى مطيةُ الشيطان
وكذا اللئيم إذا أصاب كرامة ... عادى الصديق ، ومال بالإخوان
كل امرىء يجرى على أعراقه ... والطبع ليس يحول في الانسان
فعلام يلتمس العدو مساءتى ؟ ... من بعدما عرفَ الخلائق شانى
أنا لا أذِل ، وإنما يزعُ الفتى ... فقْدُ الرجاء ، وقلةُ الأعوان
فليعلمن أخو الجهالة قَصرَه ... عنى وإن سبقَتْ به قدمان
فلربما رجحَ الخسيس من الحصى ... بالدر عند تماثل الميزان
شرفٌ خُصصت به ، وأخطأ حاسد ... مسعاته ، فهذى به ، وقلانى

تجربة نقدية ١

هذه قصيدة للبارودي تنتمي للعقد السابع من القرن التاسع عشر (١٨٦٥) وموضوعها كما أشارت المقدمة "يذكر سفره مع الجند المصرى إلى جزيرة إقريطش حين خرج سكانها عن الطاعة . ويعرض بأشياء فى نفسه . ويتشوق إلى مصر " .. وهى إذن من عناصر ثلاث .

التكوينات البنائية :

هى من حيث الشكل تتكون من أربع مقطوعات : الأولى والثانية تتكون كل منهما من عشرة أبيات . والثالثة والرابعة تتكون كل منهما من ثمانية أبيات .. وهو تصور خاص لم يتبعه المؤلف فى الديوان . ولكنه منظور نقدى يتبع مقاطع .

المقطوعة الأولى : تكوينات من حركة الجند فى ظلمة الليل . وأشكال السلاح وتردد مفردات تجمع بين عناصر الليل والجند والسلام .

محور لغوى أول : الكرى – الأجفان – السرى – الليل – العين – الظلماء – اللجة – الفضاء – البدر – السماء – البحر .
تختلط مفردات العين والأجفان بالليل والفضاء والبدر .

محور لغوى ثاني : الفرسان – النوائب – المقالع – الربا – أسنة – المران – الطوفان – مربأة – ثنية – يصهل – أجرد – أحراس – السلطان – البيض – الخرصان – الرماح – الخيل – الطراد – الرهان .
وتختلط فيه حركة صفات الجند بالسلاح بالطبيعة .

والمحوران يلتقيان فى أكثر من حركة تحددها أفعال المقطوعة : أخذ – هفا

– تستبين – تسرى – تسمو – تستن – يصهل – تصيح – يهتف – ملثوا – يبين .

ومشتقاتها : معاقد – السرى – منشور – ضارب – اشتعال – تهدار – عزف – ترنح – ناظر – التماع – أكدر – مريضة – أشكل – دوانى – واقفة –.

والأفعال تتردد فيها حركة حرف السين والشين والصاد والضاد .

وتتردد أفعال ماضية ومضارعة ومصادر وأسماء فاعلين وأسماء مفعولين .

وهو تراوح لايوقف الحركة عند حد زمنى واحد .. وإنما يمزج بين عناصر زمنية عدة تجمع بين دلالة المعنى .. ودلالة المعاصرة – ودلالة الاستقبال . وتعين على توظيف الاشتقاقات بما يتوافق مع الحركة الزمنية التوافقية .

المقطوعة الثانية : حركة زمنية تالية : وهى حركة مابعد الإصباح . عشرة أبيات تالية .

محور لغوى أول : السلاح – ألسن – أسنة – الركاب – الأرسان –

محور لغوى ثاني : الصباح – النيران – الصبح – ربا – محانى – الجبال – الوهاد – الماء – موارد – منازل – النفس – السماك – روية – الأرض – النماء – الألوان – عذار – عنان .

المحور الثانى لايتوافق مضمونياً مع المحور الأول . فى المقطوعة الأولى . وفى المقطوعة الثانية ..

هناك تناقض بين الفقرة الثانية من البيت الأول . والفقرة الأولى من البيت الحادى عشر (الأول فى المقطوعة الثانية) .

وهنا السرى بأعنة الفرسان ١/٢/١ .

وضعوا السلاح إلى الصباح . واقبلوا ٢/١/١ .

يقول الشارح فى الأولى : " أن الليل لف الناس بأستاره فناموا . أما الشاعر وجنده فقد هنا سير الليل بأعنة خيلهم ، أى زايلهم الكرى وجفاهم النوم ،

لأنهم فى حالة حرب وقتال . فالناس فى أمن ورخاء والمحاربون فى حرب وشقاء " .

ويقول فى الثانية . " وضع المحارب سلاحه فى عدوه : أى جالده وقاتله . ووضعوا السلاح إلى الصباح :

أى قاتلوا بأسلحتهم طوال الليل .."

والتناقض الحادث ينبع من وحدة الحركة الزمنية . فالمقطوعة الأولى لاتستغرق زمناً كما لانشعر مع بدء المقطوعة الثانية بأنها تنتقل لموقع زمنى آخر . ومن ثم فإن الزمن فى الأولى هو الزمن فى الثانية فكيف يحدث الحدثان فى وقت واحد " السرى" و "الحرب إلى الصباح " خاصة وأنه يؤكد ذلك فى البيتين .

هذا فضلاً عن ضعف التركيب البنائى فى البيتين . فالمعنى فى البيت الأول لايستقيم بين الشطرين .. ولا يقدم صورة بليغة عن المفارقة الحادثة من هناء الناس بالنوم وفزع الجند للسرى للحرب . كما لايقدم البيت الحادى عشر تركيبة بنائية تتوافق مع حالة الحرب طوال الليل " وضعوا السلاح إلى الصباح " . فضلاً عن الإيحاء الذى تتركه كلمة "وضع" التى تفيد "الترك" ولاتفيد "الاحتدام" .

والضعف البنائى نشعره بحدة فى كثير من "التراكيب الخيالية" غير المتوافقة .. فتقديم القصيدة يذكر سفره مع الجند المصرى إلى جزيرة "اقريطش" وهذا يعنى أو يوحى بأن الصورة التالية لرحلة الطريق .. وإذا بنا نفاجأ بأنها ليست كذلك ولكنها وصف لموقعة ليلية .. وعندما نعلم أن الثوار هم "سكان اقريطش" نعلم أيضاً أن الحرب النظامية كانت من طرف واحد وأن الطرف الثانى هم ثوار غير نظاميين .. ومن هنا نقع فى مأزق "التوافق المعنوى" بين الأبيات .. إذ كيف تستغل أسنة الرماح" ثم "تهدار سامرة" و "عزف قيان" مما جعل الشارح يقول "لعل المعنى ..." وكيف يواجه الثوار من غير الجند النظاميين بهذا الوصف الموغل فى استخدام الفرسان والخيول والحراس والسيوف والدروع حتى يغبر وجه السماء

وتمرض السماء ويشكل البحر وتلتقى الرماح والخيول متأهبة متحفزة "لطراد يوم كريهة . كيف تبدو الصورة على هذا النحو .. وكيف يمكن أن نقبل منطقياً تقابل جيشين إلا أن نتصور سكان الجزيرة من الجند المحاربين المزودين بالعدة والعتاد .

وهذا الخلل الحادث فى التركيب البنائى فى المضمون أدى إلى حدوث خلل فى التركيب البنائى للشكل .. ومن ثم ضعف الطالب والمطلوب .

المفردات المختارة قلقة فى مواضعها ، ولا تكاد تتوافق الصور فيها ومن ثم لاتطمئن إلى مكانها .

ولأن الخيال قد جنح بالمؤلف فبالغ حيث لا ينبغى أن يفعل ، فقد ترتب على ذلك هذا النوع من التصوير الموغل فى المبالغة .. والذى سرعان مايتخلص منه وكأنه يلقى عن نفسه عبئاً أثقل كاهله . وينتقل منه إلى الحنين إلى مصر . بتخلص غير حسن .

فَزِعَت .. والقصد هنا الخيل التى كانت قد توجست من الحرب وفزعت إلى الفرار وهو وصف لم يكن من صفات خيل المحاربين المتدربة .. وهو يرجع امتناعها على مقودها لشدة حنينها للعودة إلى مصر .. وهنا يخلص إلى وصف حنينه لمصر .

ونقف عند هذه العبارة "وإنما تحنانها شجن من الأشجان" . مامعناها إلا أن يكون من باب "التمحل" وعدم إتقان التعبير عن المعنى .. هل يمكن أن يكون التحنان نوعاً من الشجن . ؟ وماهى أنواعه الأخرى إن وجدت . ؟ وألا يحمل لفظ التحنان مدلول الأسى والشجن . ؟ فما الداعى لتكراره . ؟ إلاّحاجة من حاجات القريض .

ويبدو أن الشارح قد أبي على الشاعر إلا أن يكون مصيباً ، فأخذ يتلمس

لمعانيه المعاذير ، ويحاول تخريجها بما لايجرح انسيابية المعنى وتدفق الفكرة .. ومع ذلك فأنت تشعر بشيء من عدم التوافق الحادث عند الخروج من كلمة أو من جملة أو من فكرة لأخرى .

ولعل أول ملحظ في المجموعة الثالثة "قصعيدها أحوى النبات" ضعف انتقاءات المفردات للدلالة على المعنى . فالبيت السابق مباشرة يقول : بلد خلعت بها عذار شبيبتي " .. وهذا يعني أنه عندما غادره كان قد طرح الجد جانباً وأخذ في اللهو . وانقاد لدواعي الحب والغزل . وهذا لايتوافق مع وصفها الرومانسي الذي يأتي في البيت التالي مباشرة وصف النبات وسرح الظلال ، وزهرها المتدانى .

وعندما يقول" فارقتها طلباً لماهو كائن "لاتستقيم العبارة التي يشرحها الشارح على أنه " المقدور الواقع" وهو أيضاً من باب تأويل المفرد بماليس عليه في الحقيقة .

ويخلص من هذه المعاني مباشرة إلى شكوى الدهر .. وهذا لايتوافق مع الطبيعة النفسية لمن "خلع عذار شبيبته وطرح في يمن الغرام عنانه" . إذ أنه بهذا قادر على مواجهة صروف الدهر والحسد . ولكنه رغم ذلك يتصور أن الزمان قد حمل عليه . وأن خلانه قد نقموا عليه . وهو يهنيء الدهر الغيور !! برحيله عن مصر ، ويدعو صروف الزمان أن تهدأ . وهذا تصور مبالغ فيه جداً خاصة وأنه لم يصف موقعة كان فيها "قلب الأسد" .. أو فارساً مغواراً له باعه في الحرب والطرد . وليس هناك مبرر واحد لشكوى الدهر عنده .. أو على الأقل كما يرد في القصيدة . كما أنه لم يخرج قائداً لجيش بحيث تأتي عبارة" أعلمت الزمان مكاني" في البيت التالي مباشرة .. وإن كان يشير في البيتين التاليين إلى سبب احساسه بالتذمر من الدهر وسبب خوفه من الوشاة والحاسدين وغيرهم .

والمفردات المنتقاة في هذا المقطع على كثرة مدلولاتها لايحدث منها توافق معنوي يستقيم معه المعنى . فنحن لانرى سوى علاقات غير قوية بين :

النبات . الزهر . وبينها صيدا وأحوى وسرح وألى الظلال . ومتدانى .

ثم بين : فارق – تقلب – الأزمان – أجنة – عرضة – الحدثان – نقموا – الدهر – الغيور – صروف – خاننى – مغيبه – رمانى – غشا – البهتان .

ومعجم المجموعة هذه يخرج من عمود لغوى واحد .. يشكل دائرة دلالية تسلم المفردة فيه إلى الأخرى مع افتراض صحة المعنى ولامغالاته التى نراها واضحة ماثلة لاتتفق مع نسق المعنى المتواتر منذ البدء .

المقطوعة الرابعة :

وقوامها ثمانى وحدات شعرية . تستقل كل منها استقلالاً شبه تام .. وهى مما يمكن أن يجرى مجرى المثل .. وهذا يعنى من وجه آخر أنها وحدات لاتتعلق بشخص ما ، أوزمان ما أومكان ما . .أو محتوى فكرى ما .

فليجر – مطية – يجرى – رجع – مسعاته – قدمان – سبقت .

هذه دائرة أولى فى وحدات لغوية متوافقة الدلالة المعنوية اللغوية .

نفسه – الشقى – الشيطان – اللئيم – الطبع – العدو – مساعى – أذل – فقد – قلة – الجهالة – الخسيس – حاسد – هذى – قلانى .

هذه دائرة ثانية فى وحدات لغوية متوافقة الدلالة اللغوية والمعنوية .

كرامة – الصديق – الأخوان – الإنسان – الخلائق – شانى – الرجاء – الأعوان – الدر – الميزان – شرف –

وهذه دائرة ثالثة فى وحدات لغوية متوافقة الدلالة المعنوية واللغوية .

وهنا نجد عناصر التوافق بين الدوائر الثلاث وقد ساهمت فى صنع الصيغة المعنوية المعبرة عن المؤثرات النفسية والبيئية المختلفة .

خلاصة تتعلق بعناصر التكوين البنائى :

. المحاور المضمونية على النسق المقطعى السابق تتكون من أربعة محاور محور أول فى "السرى" ومحور ثان فى "النزال" ومحور ثالث فى "الحنين" ومحور رابع فى "شكوى الدهر" .

. هناك نوع من التوافق بين الدوائر اللغوية المتوزعة وفقاًلتوزع محاور المضمون السابقة وهى على ضعف بعض جوانبها يمكن أن تدل دلالة قوية على تناسق المقاطع الرأسية (المضمونية) مع المقاطع الأفقية (الدلالية). وقد تم التركيز على هذه المحاور والدوائر فى العلاقات المبينة سابقاً .

* * *